هنرى برجسون

في نظر معاصريه

اعتمادنا فى هذا البحث على محاضرات « جاك شيفاليين » الاستاذ بجامعة « جرينوبل » وانما نريد ان نمهد اليه بمعلومات عامة عن « برجسون » بجماعة من انصار فلسفته بمناسبة حصوله على جائزة « نوبل » للآداب

١ — ترجمة حياته

(١) ولد هنري برجسون فى باريس يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٥٩ وهو من أصل بولونى تجنس بالجنسية الفرنسية بعد تخرجه من مدرسة المعلمين تلقى علومه

الأولية فى « ليسية كونسورسيه » والتحق بمدرسة المعلمين العليا سنة ١٨٧٣ . وكان متفوقا فى علم الرياضة . ويروى أن استاذه حين علم بانه ينهيأ للدخول فى القسم الأدبى قال له « ويحك . هذا عمل جنونى ! » . وقد أراده على ألا يتخلف عن القسم العلمى . على أنه حين صار فيلسوفا لم يترك الاشتغال بالعلوم .

وفى سنة ١٨٨١ اجيز له بتعليم الفلسفة وكانت بداية اشتغاله بالتعليم فى مدرسة « دانجين » وفى سنة ١٨٨٣ صار استاذاً للفلسفة فى مدرسة « بلين باسكال » ثم فى مدرسة « كلرمون فران » حيث لبث خمس سنوات . وفى سنة ١٨٨٩ عين فى باريس استاذاً فجعل يعلم فى « كلية رولان » ثم فى مدرسة هنرى الرابع . وبقى من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٠٠ محاضرا فى مدرسة المعلمين العليا التى تركها ليكون استاذاً فى « الكوليج دى فرانس » . وبقى برجسون استاذاً فى هذه الجامعة إلى سنة ١٩٢١ غير أنه منذ سنة ١٩١٤ طلب إلى المسيو « أنوار ليروا » ان يقوم مقامه بحيث نستطيع أن نقول ان مدة تعليمه فى الكوليج دى فرانس انتهت تقريباً عند بدء الحرب الكبرى . وقد رأى من واجبه فى غضون تلك النكبة ان « يتحدث الى أصدقائه ومحبيه حسب تعبير الاستاذ جاك شيفاليين فانتقل للمحاضرة فى اسبانيا دفعتين متواليتين (١٩١٧ - ١٩١٨) وسافر للغرض نفسه الى الولايات المتحدة الامريكية ولما وضعت الحرب اوزارها صار من اكبر واجل « صناع » الصلح العالمى

ولما ألفت عصبة الامم لجنة للتعاون الفكرى الدولى اختارت « برجسون » رئيسا لها وبقى محتفظا بهذه الرئاسة الى سنة ١٩٢٥ .

وكان منذ سنة ١٩٠١ عضواً فى اكادمية العلوم الخلقية وانتخب عضوا فى الاكاديمية الفرنسية منذ سنة ١٩١٤ حيث حل مكان « اميل اوليفيه » ، وهو حائز على وسام « اللجيون دونور » من درجة « غراند اوفيسيه » .

ويقال انه على اثر محاضرة القاها فى فلسفة « الآليات » اهتدى فجأة الى هذه الفكرة وهى ان زمن ارباب الحساب لا يراعي ذلك الزمن الداخلى او الدوام الذى هو بمنزلة الغلاف لحياتنا السيكولوجية . ولما تعمق برجسون فى درس هذه الفكرة توصل منها الى طريقة فلسفية وجواب على بعض مسائل الحكمة القديمة وعلى الاخص مسألة

الحرية . وكانت النتيجة انه اصدر كتابه فى الشعور بالذات سنة ١٨٨٩ .

وكان اشد ما طمح اليه برجسون فى بدء حياته الفلسفية ينحصر فى اعادة الانسان الى الحقيقة الروحية الكائنة فيه. وكانت مهمة عويصة تعترضها صعوبة درامية من حيث ان الانسان قد اتجه اول عهده بالحياة الى الخارج وتألفت أفكاره من تأمل الاشياء المادية كما تكونت الفاظه للاعراب عما هو ثابت جامد خارج دائرة الزمن . فكيف يتاح تصريف الحقيقة الروحية المتغيرة الشتيتة الالوان بأفكار والفاظ صيغت للترجمة عن العالم الخارجى ؟

ولكن الشعر انقذ الفلسفة . فان ما تعجز الالفاظ عن الاعراب عنه يستطيع ذلك النوع من اجتماع الالفاظ والتوفيق بينها ان يلهم به و يوحيه . كذلك استطاع هنرى برجسون ان يعرب عما لا يقبل الاعراب عنه اى من تلك المعارف المباشرة التى يسطها للناس فى موضوع الشعور بالذات .

وبالاختصار نقول ان برجسون هو صاحب ذلك العلم المبدع للقوالب الفكرية التى نتأمل بها الكون ونفكر فيه . وهو مجهود فى سبيل الرجوع الى الشعور بالذات يهتدى به الانسان الى ذاتيته فى حالة صفائها وبراءتها وهو مجهود شعرى للفكر حتى لا يكون مقيداً عاجزاً عن وسيلة للاعراب عن الحقيقة الروحية .

٢ — آراء عامة فى البرجسونيسم

من الممكن أن نقارن مقام « هنرى برجسون » اليوم فى الفلسفة وفى الاشتهار بمقام ابن رشد فى عصره . وهذه المقارنة وإن كانت لا تخلو من شئ من الغلو إلا أنا إذا تغاضينا عن التباين بين مذهبى الفيلسوفين لاحظنا فى الحال المجهود المتشابه لكل منهما فى سبيل تجديد الفلسفة . أما فضيلة الابداع فى باب الحكمة فلا يمكن أن تنسب إلى أحدهما دون الآخر . غير أن برجسون كان بالنسبة لعصره أقوى خلقا. كانت فلسفة أرسطوطالية جددها ابن رشد . إلا أن الاخلاف التى جاءت من بعده أطلقت عليها اسمه فقالت فلسفة ابن رشد « افرويسم » ولم تقل فلسفة أرسطوطاليس. وقد وقف العالم المستنير حينا من الزمن ولا يزال يستمع ويبحث ويجادل فى مذهبيهما: ابن رشد وبرجسون . لقد بعدت مسافة الزمن بينهما إلا أن سلسلة تفكير الفلاسفة

المعاصرين لا تكاد تخلو من تلك الحلقة القديمة اللازمة التى يرمز اليها باسم ابن رشد

نقول أن هنرى برجسون يكاد يكون بين فلاسفة هذا العصر — لا فى فرنسا وحدها بل فى العالم — ، ذاتية فلسفية ، ذات مقام خاص و ينبغى أن تدرس على حدة. و ألا يصدر فى سبيلها حكم دون تدقيق و بحث طويل . ولعل هذا الدرس يكون أصعب باللغة العربية منه فى لغات الغرب . لأن تآليف برجسون مجهولة لدينا و لأن العربية لم تألف إلى الآن نقل مذاهب الفلاسفة الغربيين . انما نرى من الضرورى مع ذلك تعريف القراء بفيلسوف عصري واسع الشهرة مثل برجسون الذى شغل الأذهان فى أوربا الآن بفلسفته . هذا إلى ترشيح فرنسا له من أجل حيازة جائزة « نوبل » للآداب وقد نالها . فأيد رأي المعجبين بالجزء الادبى من فلسفته . وهو من أجل ما ينتجه عقل مفكر .

٣ـ برجسون الفيلسوف

عند ما التحق « برجسون » بمدرسة المعلمين العليا واختار أن يكون فيلسوفا من بعد دراسة علمية وأدبية عميقة واسعة كان التأثير الغلاب فى الجامعة هو تأثير الفيلسوف « فيلكس رافيسون » الذى وصفه برجسون فقال «ان صوته لم يكن يحمل غير صدى الماضى المندثر . إلا أن غيرنا كان يستمع منه كما لو كان فى حلم انشودة المستقبل المفرحة» وفى تلك البيئة العلمية التى كانت لا تزال تتنفس فى جو الماضى لم تكن ثمة جرأة أشد ولا تجديد أقوى من « أن يقال للطبيعيين إن الجامد لا يفسر إلا بالحى و إلى علماء الحياة أن الحياة لا تدرك الا بالفكر و إلى الفلاسفة أن العموميات ليست من الفلسفة فى شئ و إلى الاساتذة أنه ينبغى تعليم الكل قبل المبادئ و إلى التلاميذ أنه يلزم الابتداء بالكامل و إلى الانسان الذى تمادى فى حب الذات وفى الحقد أن ليس له من محرك طبيعى غير الجود » (كلام برجسون) . ولم يكن من السهل تذليل العقبة التى تعترض ذلك الشعور بالتمشى مع الزمن فى الفلسفة — الميل إلى التجديد — بالنظر إلى التناقض الذى كان موجوداً بين وجهتى نظر « جول لاشليه » و« أميل بوترو » وكانا أكبر أشياع « رافيسون » . وكان كل منهما يحاول أن يترجم عن تعليم أستاذه بصورة واضحة مصوغة فى قالب مبهم من إلهامه .

فى ذلك الوقت كان المهم معرفة الموقف الذى يتفق مع الفكر تجاه العلم . هل ينبغي قبول مذهب « الميكانيزم » كاملا على اعتبار أنه ثمرة مجهود فكري حر أو أن نقد الفيلسوف لا يجب أن يتناول جوهر ذلك العلم الوضعى من حيث كونه مختجزاً عن عجلة أو فى الأصل ضمن نطاق القواعد العقيم ؟ نقول إنه حين فتحت الطريق التى سلكها « بيردوهم » و « هنرى بوانكاريه » منذ سنة ١٨٧٤ دلت دراسة « توافق نواميس الطبيعة » عند بدء الاتصال بحقيقة الكون والتاريخ على أن مدرسة « سكولاستيك » المعارف المجردة كما حسب « تين » وقتئذ أنه أيد فوزها لا تتفق إلا على ظل أوشبح من العلم تولد من مخيلة أديب . هنا نلمس النقطة والظرف اللذين ابتدأت فيهما عبقرية برجسون تنبثق انبثاقها الباهر . وأنها لتبدو لنا عند النظر اليها من ناحية تأثيرها على الروح العام حداً فاصلا مع الاتجاه الفكري الذى قاد الرأى اليه فى عهد الامبراطورية الثانية . أما من الوجهة الجوهرية العميقة فان عبقرية برجسون تشبه أن تكون مطلع حركة لم تكن قد انقطعت كل الانقطاع بل انسياباً نهائيا لذلك « المجرى غير المنظور الذى حض الفلسفة الحديثة على أن تسمو بالروح إلى ما فوق الفكر »

هذا إلى ما كان يعاب عليه المعجم الفلسفى وقتئذ من الفقر والنقص فى الألفاظ. وقد عمل برجسون فيما بعد على سد ذلك النقص . ولم يكن استعماله للفظتى السكولاستيك تارة والروماتيسم تارة أخري، الا لكى ينبذهما دفعة واحدة . ومن الحق أن يقال انه توغل على الاثر فى سبيل الفلسفة الفرنسية القديمة (الكلاسيك) حيث لافرق ألبتة بين التجلى الآلهى والذكاء .

واذا كانت الروح فى حسبان السواد مجرد جوهر مختف وراء ظاهراته كما يختفى الكرسى بالغطاء انتظاراً للساعة الاخيرة من الحياة قديم ظل هيكلها خارج الزمن لكى تشركه فى العالم الآخر من بعد الموت — فان الروح فى مذهب برجسون — الروح البرجسونية — حقيقة روحية ذات اثر فى استمرار ظاهراتها الذاتية . سارية سرياناً تاماً فى شعورها بمصيرها . وهناك إلى جانب مادية الروح مادية الفكر .

ولقد سخر « مالبرنش » من أولئك الدكاترة الذين زعموا انهم فسروا الطبيعة بافكارهم العامة المجردة كأن الطبيعة شيء مجرد . ومثل هذا الرأي العاجز عن أبسط تجارب المعمل وحساب الكميات لاتكاد تتجاوز طاقته ترتيب الاشياء انواعاً وتعرفها وتعيينها عند المرور بها . ولكن العلم الصحيح انما يبتدئ عند ما يلج الذكاء إلى جوهر الأشياء وعند ما يحل معقداتها وما يتصل بها من الحركات. ونحن اذا أردنا ان ندرك إلى أى حد كان برجسون « مبتكراً » فى الفلسفة يجب أن نلقى بنظرة إلى آراء الفلاسفة من قبله . فقد كان بسر « ديكارت » « وسبينوزا » أن يجهرا بانهما نفعيان . والأول اعتبر الحيوان آلة « ميكانيكية » لان فى الانسان الاداة المتحركة من تلقاء ذاتها ولأنه يخلق تلك الاداة . ولقد كان من الممكن ان يخسر كل منهما جزءاً جوهرياً من عبقريته وألا يفقه معنى القيمة التى علقها على نهضة الميكانيكا والطب لو أنه لم يدرك — خارج دائرة الحسنة الانسانية التى كان ينتظرها من تلك النهضة — ان عظم نتائج العلم العقلى « راسيونيل » دليل لايدحض على انه حق . أما الفلاسفة النقاد الذين تولوا فى القرن التاسع عشر استخلاص الصحيح من الفاسد فقد صوروا العقل فى صورة هزلية حين عرفوه بانه ملكة تصيغ الأشياء فى صيغ عقلية خارج دائرة التجربة ونفوا أن التجربة قابلة لان تخضع لصيغ العقل. وأما الحكماء «الكلاسيك» فى القرن السابع عشر فانهم بدلا من ان يعارضوا الدقة المتناهية للحقيقى بأصول الوحدة المنطقية وبدلا من أن يسيئهم تخطى الذكاء متعديا حدود النهائى وغير المستمر لم يروا فى منطق « زينون الايلى » سوى مذهب وهمى وهرطقة خيالية . إلى آخر ماهنالك من رأى « سبينوزا » فى الدوام ومذهب جماعة الكلاسيك فى الروح البشرية — نقول إن الرجوع إلى تلك الآراء يظهر ما فى مذهب برجسون من الابتكار والخلق . فلقد انحى بفلسفته على آراء ديكارت وعلى الاخص فى مسألة المسافة والدوام . ومن جهة أخرى فانه لم يقتصر فى كتابه «التطور الخالق» على تأييد أن الطبيعة منزهة وليس حب الذات من صفاتها فقط وانما تناول ايضاً مسألة الجاذبية العامة التى هى فى أصل الغريزة . وقال بالجاذبية الفكرية التى تتجلى لذاتها فى تكميل رأى « سبينوزا » فى « الايتيك » الخاص بالشعور بالذات

الآلهية عن طريق التجلى والحب . وانه يكاد يكون من الممكن وجود بقاء آخر غير بقائنا كما أنه من الممكن ألا يكون فى الدنيا لون آخر سوى البرتقالى مثلا . ورأى برجسون فى هذه المسألة جديد يلهم بوجود بقاء آخر . وان الابدية انما هى أبدية حياة لا ابدية موت .

ولعل برجسون يمتاز على سائر فلاسفة العصر بعبادته للحقيقة . ومن أجل ذلك أقام أحد أساتذة الدانمرك الموازنة بينه وبين « كيركجار » سيد حكماء الدانمرك الذي قضى الشطر الاكبر من عمره فى محاربة أصحاب الذكاء الوسط من الاكليروس وبقى عدواً للكنيسة وللدين فى سبيل الحقيقة . ويعتقد « كيركجار » أن لا وجود للحقيقة فى مذاهب الفلاسفة وان طرائقهم فى البحث لا تؤدى إليها . ومن أجل مزايا برجسون أنه لا يصدر حكما الا بعد التعمق الشديد فى البحث عن الحقيقة . تعمقاً يتجاوز طاقة الذكاء . ولقد حرر برجسون الفلسفة من ميتافيزيقية الميكانيزم العلمى والديتيرمينزم وهو باكتشافه للبقاء الحقيقى غير مجرى الفلسفة . وفى الحقيقة أن مذهب « كانت » فى الجامعات قد أصيب بصدمة عنيفة حين برهن برجسون على أن الزمن فى مذهب الفيلسوف الالمانى انما هو زمن زائل لا دوام له .

قلنا ان برجسون كمل الرأى الذي ختم به « سبينوزا » كتابه « الايتيك » فى الشعور بالذات الآلهية عن طريق الحب والمشاهدة فاشار الى « الجاذبية الفكرية » التى تتجلى بذاتها وقال « من الممكن ألا يكون هناك بقاء آخر غير بقائنا كما انه كان من الممكن الا يكون فى العالم لون آخر غير البرتقالى مثلا . الا ان الاحساس الذاتى المرتكز على قاعدة اللون الذي يتفق كل الاتفاق مع البرتقالى بدلا من ان يدركه ادراكا خارجيا يسرى فيه الحس بالبقاء بين الاحمر والاصفر بل من الممكن ايضا ان يمتد ذلك الحس الى ماتحت ذلك اللون الاخير حيث يكون ذلك الظل الذى يطيل بطبيعة الحال الامتداد اللونى الذى يبتديء من الاحمر الى الاصفر . كذلك هو شعورنا الداخلى ببقائنا بدلا من ان يجعلنا معلقين فى الفراغ يقيم الاتصال بيننا وبين تسلسل من البقاء تتبعه دائما سواء أكان فى هذه الدنيا ام فى السماء . وفى الحالين نستطيع ان نمد فى ذلك التسلسل من البقاء بمجهود يزداد قوة وعنفا بمقدار ما يزداد ذلك البقاء امتداداً . وفى الحالة الاولى نسير الى بقاء

ينتهي بالتجانس المحض و بالتكرار الذى تستوضح به المادة . وفى الحالة الاخرى تتبع بقاء يمتد ويتلاحم ويتسع باستمرار وفى نهاية الابد . ليس ابد الفناء هو ابد حياة - ابدية حية ومتحركة ايضا يكون فيها بقاؤنا مثل التموجات فى الضوء الخ ،

ولعلنا ندرك من هذا الرأى مقدار ما فى الفلسفة البرجسونية من الجدة والابتكار .

قامت شهرة برجسون على مذهبه فى الاحساس الذاتى السيكولوجى ونظريته الجديدة فى الحرية وفى البقاء .وفى كتابه « المادة والذاكرة » تناول مسألة العلاقات بين الروح والعالم الخارجى وبنى علما روحيا تحليليا لم يسبقه اليه أحد من الفلاسفة.وفى « التطور الخالق » شرح الحياة . على ان الكثير من المعجبين به لا يكاد يعرفه الا من كتيبه الصغير فى موضوع « الضحك » فى حين انه طبع الجيل العلمى الحاضر بطابعه . وهذا العصر الفلسفى انما هو عصر برجسون . وهو كفيلسوف ناقد جرى فى تحليله صادق النظر قد أظهر الفكر الحديث . ولكنه الى ذلك كان بانيا جدد فكرة الحقيقة والمعرفة حين كمل الذكاء المنطقى بالاحساس الذاتى السيكولوجى - وكان منكورا - وبنظرية الزمن وفكرته فى الحياة وفى الروح . ولقد بسط فلسفته فى الحياة بابدع اسلوب وبعبقرية ادبية هى الباعث الجوهرى على شهرته العالمية .

ولما نظر برجسون الى الحياة نفى عنها كما نفى ديكارت كل الاوهام وكل براهين المنطق المجردة . ونبه الى ان معرفة الانسان بنفسه اصعب من معرفته بالآخرين وان الانسان يجهل ذاتيته العميقة بالنظر الى اعتياده ان يجعل ذاتيته متصلة باشباهها من الذاتيات الاجتماعية كقطع العملة . وبنى على ذلك مذهبه فى الاحساس الداخلى .

والاعتماد على البصيرة فى ادراك الاشياء وفى ادراك الانسان لحقيقة نفسه عنصر جوهرى فى مذهب برجسون . وانما ينبغى للانسان ان يحيى اولا لكى يستطيع ان يفهم الحياة . ومقدار ما نحب الحركة والارادة الملهمة والطموح والنهوض نزداد قربا من مذهب برجسون

على ان لصاحب « التطور الخالق » تأثيراً آخر هو تأثيره فى الجال الفنى لعهدنا - وهو لعمري اقوى واشد قرباً من تأثيره فى العادات وظاهر ان هناك اتفاقا طبيعيا

بين مذهب البقاء الحقيقي والالهام الفني . فرفع برجسون ارباب الفنون الى المقام الاسمى وقد رأي فيهم مثال الممتازين فى الوجود. وهو نفسه لم يترك الاستعانة بوسائل الالهام الذاتى التى ينطوى عليها الفن لكى يجعل آراءه محسوسة شديدة الاتصال بالشعور .

ومن أجل ذلك عده كبار رجال الادب مصدر إلهام . واتفق فى عهد ازهرار المدرسة الرمزيه ان انبهر شعراء تلك المدرسة حين تجلى لهم اتفاق المثل الاعلى الذي يتبعونه مع بعض آراء برجسون فى مذهب الاحساس الذاتى . ومنذ ذلك الوقت صار كبار المجددين يستلهمون من نظرية برجسون فى الشعور بالذات والحياة السيكولوجية. وينسب اليه بعض الادباء الفضل فى تحرره فكريا . التحرر من العبودية الفكرية التى كانت قد فرضتها مذاهب « ستوارت ميل » و « رينان » و « تين » وتحمس لذلك التعليم الفلسفى الجديد الذي قام على الحق والتجربة . ولسنا ننكر مع ذلك ان الكثير من بين الكتاب المحدثين لم يبلغوا من الثقافة شأو التغذية المباشرة والشخصية من آراء برجسون . وهم مع ذلك برجسونيون وان لم يتنبهوا الى ذلك . لان المذهب قد صار على ما يظهر بتأثير سريانه فى الجماعة مفهوما من كل عقل قدير على ابسط ضروب التفكير . ومامن أحد يقتنع بأن التجربة الحقيقية الوحيدة هى التجربة الشخصية لا يتردد فى وضع الصدق فى تصوير الحوادث والامور فوق كل شيء .

اما فى دائرة العلوم البحتة فان عمل البرجسونيسم ابطأ واشد قبولا للجدل . وقد كان برجسون عالما من قبل ان يكون فيلسوفا ورياضيا قبل ان يكون سيكولوجيا. وتأليفه مبنى على المعرفة الدقيقة بكل علوم عصره . وما زالت نظراته فى الفلسفة خطراً يهدد الاخطاء التى شاع تصديقها . واذا كان برجسون قد وسع علم السيكولوجيا باعماله فان لتلك الاعمال المقام الاسمى فى نظر علماء الحياة .وبهذا الاعتبار يعد برجسون بحق استاذ التفكير والاحساس فى عصرنا . واخلص الذكاء من شوائب الافكار القديمة، مقدار ما حرر الارادة من العبودية الصناعية والشعور من الاوهام التى تجمدت. وقد ارجعنا الى الصفاء والصدق والتأكد من الحقائق . ولم يسلم شيء ولا انسان من تأثيره . حتى الموسيقى تعتبر فنا برجسونيا لانها اقوى الفنون إلهاما وايحاء مباشراً .

٤ — برجسون وعلم الحياة

فى رأى السنيور « أوجينيو رينانو » الاستاذ بجامعة « ميلانو » : ان علم الحياة مدين لبرجسون فى مسألة لا تزال آراؤنا من حولها جد مختلفة . وهى تلك المسألة التى حلها بنظر صريح وبحجة قوية شأنه فى كل المسائل فقال إن الحياة سلسلة من نوع خاص « processus sui generis » متباينة بصفة جوهرية عن العالم غير العضوي الذى يحيط بها . وقد كان العصر الذى حدثه برجسون بهذا الرأى يدين فى البيولوجيا والفزيولوجيا بمذهب الميكانيزم المطلق أى بأن القوانين الطبيعية الكيمائية وحدها تكفي لتفسير الطبائع والمميزات الاساسية للحياة وان هذه هي طريقة النظر العلمية الصحيحة وان ما عداها ليس سوى . . . « محض أدب » . وقتئذ لم يرتفع صوت برجسون لمجرد تأييد أن الحياة شئ آخر اسمى مما يجرى داخل معوجة زجاجية فى معمل وانما نجح أيضا بما أوتى من بلاغة وسحر بيان فى ان يشعرنا بذلك الطبع الفريد الخاص بالحياة نفسها .

وقد عنى بنظره هذا الاحساس بالذات الذى يسرى فى المادة ويتجه سواء أكان فى سبيل الادراك بالبصيرة أم بالذكاء وفقا لانتباهه إلى حركته الذاتية أو إلى المادة التى يسري فيها .

أما نظره فى ذلك « العنصر الحيوى » فانما أراد به ضمان ثبات القالب الخاص للجمومة العضوية . هذا برغم البواعث المتعددة التى تترقى وسطها تلك المجموعة نفسها وبرغم أن وجهة النظر الوضعية لا تستطيع أن تقبل ذلك تفسيراً للحياة ولمميزاتها الاساسية . ولما كان أميز ما يمتاز به « برجسون » أسلوبه الشعرى القوى التأثير فقد أشعر — حتى الوضعية نفسها — بأن الحياة لا تحل بسلسلة ظاهرات طبيعية كيمائية . وان الطابع الخاص للحياة إنما هو شبه طابع روحى . وبالاختصار تقول أن وجهة نظر برجسون فى الحياة ترمى الى حل الخلاف القديم بين أنصار مذهب الحياة « فيتاليست » و أنصار مذهب الآلة « الميكانيست » واليها وحدها ينسب الفضل فى نشوء ذلك النظر الجديد فى حل لغز الحياة عن طريق الطاقة الحيوية

وفى رأى آخر للدكتور « مورج » أنه لما صدر كتاب « المادة والذاكرة » لتأليف برجسون — سنة ١٨٩٦ لم يكن بين غالبية المشتغلين بجراحة المجموعة العصبية من يشك فى الصبغة النهائية التى وصلت اليها اذذاك طرائق البحث فى ذلك العالم « النور » لوجيا، وقد كان المظنون بفضل أبحاث العلماء « هتزيج » و « مونك » فى المانيا وشاركو، وتلاميذه فى فرنسا أن معضلة الاوضاع المخية قد حلت نهائيا وان خريطة المخ قد وضحت بصفة تامة و وظائف كل جزء من أجزاء المخ قد بينت . غير أن برجسون جاء وتناول بالبحث الدقيق وبالنقد مجموعة الملاحظات الخاصة بالنطق أى باضطرابات اللسان المقترن بعاهات موضعية فى المخ وأفضى ببحثه إلى هدم النظرية الاولى . وكان عمدته فى البحث تلك العلاقات الموجودة بين الروح والجسم ومن يدرك مقدار استمساك العلماء الجراحين والمشتغلين بالمجموعة العصبية لذلك العهد بالنظرية القديمة يقدر جرأة برجسون فى هجومه على ما قد تم التسليم به كحقيقة تؤمن بها نخبة الاخصائيين فى العالم باسره . وبذلك اضاف «برجسون» صفحة خالدة الى تاريخ العلم فى نهاية القرن التاسع عشر . وفى الحقيقة ان وجهة النظر التى انتهى اليها برجسون ورأيه فى أنه ليس هناك مراكز للصور فى المخ صار اليوم من الآراء المسلم بها من الاخصائيين الجدد بفضل ابحاث « بيير مارى » الجراحية الباثولوجية وأبحاث « هنرى هيد » و « مونا كوف » . وليس معنى هذا انه لم يبق لمذهب الاوضاع المخية انصار . فقد نشر « هنشن » (من جامعة اوبسال) على اثر الحرب جزأين كبيرين فى تأييد ذلك المذهب الذى كافحه برجسون كفاحاً كلل بالفوز

وهناك على الدوام اخصائيون يبحثون فى مركزية الظاهرات الروحية فى هذه الناحية او تلك من المخ . وقد وضح لنا برجسون السبب وعزاه الى ان خاصية الذكاء انه يجزىء الحقيقة كما يجزىء اللسان اصطناعيا الكلمات غير أن الترقى الفنى (فى الطب) دل على انه ليس هناك مباءآت ميكروسكوبية خشنة على القشرة المخية .

ويتحدثون الآن عن مختلف الطبقات التى تظهر بالميكروسكوب ويتألف منها المخ . فقد زعم الجراح الالمانى الكبير « اوسكار فوغت » (من برلين) فى محاضرة نشرتها اخيرا جريدة « البرافدا » ان البحث الميكروسكوبى لمخ « لينين » الذى تولاه بنفسه عدة سنين

عد دل على النمو الخارق لانسجة الطبقة الثالثة من المخ وامتدادها وقال بأن لذلك علاقة بروحية « لبنيه » Psychisme ونحن اذا سلمنا بان هذه النتيجة صحيحة موضوعيا فان من الخطأ هنا عزل ظاهرة بصفة صناعية عن حالات وجودها وانه لولا عديد من العوامل الاخري (الغذائية على الاخص) لما كان لتلك الطبقة الثالثة من المخ ذلك النمو الخارق الذى زعمه أوسكار فوغت ، لانها ليست طبقة مستقلة عن الطبقات الخمس الاخرى التى تتألف منها القشرة المخية .

وتسيطر نظرية الزمن على كل حياة النظام العصبى . ويعرف الاطباء من عهد ابقراط ان معرفة المرض ليست اهم من معرفة تطوره فى الزمن . على انهم يعدون ذلك من المسائل الاولية التى لا اهمية لها .

***

هذه كلمة فى غاية الايجاز عن برجسون الفيلسوف نكتفى بها الآن لكى نبدأ فى المقال التالى بنقل ملخص كامل لفلسفته بالاعتماد على محاضرات الاستاذ جاك شيفاليه وموعدنا العدد التالي .

عبد الحميد سالم